الأثر الديني في رثاء المدن والممالك الأندلسية

م.د. بشرى عبد الرزاق وهيب

الجامعة المستنصرية / كلية الآداب / قسم الترجمة

الملخص:

يعرض هذا البحث قضية من قضايا الشعر الأندلسي الذي واكب النكبة الي حلتفي بلاد الأندلس إذ ساد القتل والموت والدمار بدلا من الحياة الرغيدة الهانئة التي كانت تشتهر بها تلك البلاد ، فوقف الشعراء يرثون مدنهم وممالكهم متخذين من شعرهم وسيلة لوصف ما آل إليه حال البلاد ووصف مآسيها وما عانته من هلاك ودمار على يد المحتلين الغزاة كما سخر واشعرهم للدعوة إلى الجهاد. ونصرة البلاد التي كانوا يرونها تضيع من بين أيديهم وقد كان الدين منطلقا أساسيا لقصائدهم ؛ لما له من سلطة قوية وتأثير في النفوس البشرية آنذاك لذلك حمل شعرهم الذي رثا لمدن والممالك مضامين دينية تناسب مع الموقف والموضوع. وقد تتبع هذا البحث روافد النزعة الدينية ومصادرها سواء أكانت مستقاة من القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف ، كما يوضح موضوعات شعر رثاء المدن والممالك الأندلسية التي برزت فيها النزعة الدينية.

الكلمات المفتاحية: (الأثر الديني، الرثاء، الممالك الأندلسية).

The religious impact on the lamentations of Andalusian cities and kingdoms

M.D. Bushra Abdel Razzaq Wahib

Al-Mustansiriya University / College of Arts / Department of Translation

Abstract:

This research presents an issue of Andalusian poetry that accompanied the catastrophe that befell the country of Andalusia, when killing, death, and destruction prevailed instead

of the prosperous and comfortable life that that country was famous for. So the poets stopped lamenting their cities and kingdoms, using their poetry as a means to describe what the state of the country had become and to describe its tragedies and what He suffered death and destruction at the hands of the invading occupiers, and he also mocked and mocked them for calling for jihad. And the victory of the country, which they saw being lost from their hands, and religion was a basic starting point for their poems. Because of its strong authority and influence on human souls at that time, their poetry, which lamented cities and kingdoms, carried religious contents appropriate to the situation and topic. This research has traced the tributaries of the religious tendency and its sources, whether derived from the Holy Qur'an or the Noble Prophet's Hadith. It also clarifies the topics of lamentatory poetry for the Andalusian cities and kingdoms in which the religious tendency emerged.

Keywords: (religious influence, lamentation, Andalusian kingdoms).

الأثر الديني في الشعر ومفهومه :

لا شك في أن القرآن الكريم مفخرة العرب في لغتهم ، إذ لم يتح لأمة من الأمم كتاب قبله من حيث البلاغة والتأثير في النفوس والقلوب ، فهو معجزة بيانية خالدة ، ومن دون ريب لن تمر هذه المعجزة البيانية بحياة العرب من دون أن تؤثر فيهم وفي أدبهم، فترجموا هذا التأثير في أشعارهم ، فاتخذ شعراء الأندلس من القرآن الكريم نبراساً لأشعارهم ، ونبعاً كريماً فياضاً يستقون منه أفكارهم ، إذ توضح الأثر الديني في أشعارهم ((من خلال توظيف الأساليب البلاغية وفنونها ، من اقتباس وتضمين وتورية أو تلميح أو أشارة ، وأحسنوا استخدامها في خدمة المعنى العام))

وقد تجلى الأثر الديني في شعر رثاء المدن الأندلسية ؛ لأنَّ القرآن الكريم ((من أهم الوسائل المنتجة للدلالات ، فهو معين لا ينضب ، بما يحتويه من قصص وعبر وأحداث ، كيف لا وهو كلام الله المعجز ، حيث نرى الكثير من الشعراء يتكئون على مفرداته ومعانيه ويقتبسون من آياته ؛ ليمسكوا مدى ما يشعرون به اتجاه أحداث وقضيا العصور التي يعيشون فيها)) [١]

وإن نظرة في الشعر الأندلسي بعامة وفي شعر رثاء المدن الأندلسية بخاصة ، تؤكد أن النص القرآني بمعانيه ولغته أكثر المصادر توظيفاً ، وأعمقها تأثيراً في المضامين الشعرية الأندلسية .

مفهوم الرثاء :

الرثاء هو لغة القلوب وحديث العاطفة ، وهو آية المحزون، وصرخته ، وقطعة من القلب المفؤود وكبده المتقطع ، وآية ناطقة بفداحة الخطب وهول المصاب ، لا ترسله الألسنة إلا من صدور مكلومة ، وأفئدة موجوعة ، ونفوس باكية ، وقلوب ملتاعة . شفاها الحزن، وصدعها الهم ، واستولت عليها الحسرة والأسى[٢]

وكلما كانت الصلة بين الراثي والمرثي وثيقة متينة ، كانت الحسرة عليه أشد ، والفجيعة به أعظم ، من أجل ذلك ترى رثاءهم لأبنائهم بكاء مؤثراً ؛ لانبعاثه من قلب جريح وفؤاد منفطر ، ونجد ذلك في شعر المعتمد بن عباد الذي رثى به ولديه

المأمون والراضي حين قتلهما المرابطون[٣]

والأندلسيون كانوا أقدر الناس على رثاء الممالك الزائلة ، والأقطار الضائعة ، والدول الأفلة ، وندب الملوك التي تنتزع عروشها، وتخلع عن سلطانها لم يدركهم في ذلك سابق ، ولم يلحقهم فيه تابع[٤].

الرثاء لغة :

قال الجوهري :

((رثا : رثى : الرثية بالفتح ورثية الميت مرثية ، ورثوته ايضاً :

إذا بكيته وعددت محاسنه ، وكذلك إذا نظمت فيه شعراً ورثى له أي : رق له)) [٥]

قال ابن فارس

((رثي: بأن الراء والثاء والحرف المعتل أصيل على رقة وإشفاق .

يقال رثيت لفلان : رققت . ومن الباب قولهم رثى الميت بشعر)) [٦]

قال ابن منظور:

((الرثاء مشتق من الجذر الثلاثي (ر ث ي) يقال رثى فلان فلاناً، يرثيه ومرثية

إذا بكاه بعد موته ومرثاة فأن مدحه بعدة موته أي بكيته ورثوت الميت أيضاً بكيته وعددت محاسنه وكذلك إذ نظمت فيه شعراً)) [٧]

الرثاء اصطلاحاً :

هو رثاء الشاعر لمن مات من أحبابه ، أو العظماء من قومه وممدوحيه ، إذ نجد الشاعر يقدم لهم رثاء ، يرسم من خلاله صورة لأنسان يستحق الحزن على موته ، والجزع من اجله ، وبمعنى آخر إنسان نافع محبوب)). [٨]

أو ((هو ذكر مناقب الميت ومأثره ومكارمه ، ووصفه بما يليق ، به أو يتناسب مع مكانته الاجتماعية ، ثم ينفذون من خلال ذلك إلى التعزية ، وتكون بالحث على الصبر والتأسى بالسلف ،

فيما عرف من فجائع الدنيا ؛ ليتاسى بذلك ولى الهالك وقد يختمون مراثيهم بالدعاء للميت ، والترحم عليه ، او بطلب السقيا له)) [٩]

أقسام الرثاء :

١ - **الندب** : ((هو النواح والبكاء على الميت بالعبارات المشجية ، والألفاظ المحزنة التي تصدع القلوب القاسية ، وتذيب العيون الجامدة ، إذ يولول النائحون الباكون، ويصيحون، ويعولون مسرفين في النحيب ، وسكب الدموع)) [١٠]

٢- **التأبين** : ((أصل التأبين الثناء على الشخص حياً أو ميتاً ، ثم اقتصر استخدامه على الموتى فقط ، إذ كان من عادة العرب في الجاهلية أن يقفوا على قبر الميت فيذكروا مناقبه ، ويعددوا فضائله ، ويشهروا محامده ، وشاع ذلك عندهم ودار بينهم ، وأصبح في سنهم وعاداتهم ، ولو لم يقفوا على القبور كأنهم يريدون أن يحتفظوا بذكرى الميت على مر السنين)) [١١] .

٣- العزاء :((أصل العزاء الصبر ، ثم اقتصر استعماله في الصبر على كارثة الموت ، وأن يرضى من فقد عزيزاً بما فاجئه به القدر ، فتلك سنة الكون نولد، ونمضي في الحياة سعداء أو أشقياء ثم نموت وكأن الناس راحلون، وهم لا يفكون عقد رحلهم إلا في أجدائهم ، فهي قرارهم وهي غايتهم التي ينهون إليها ، ولا مفر لهم منها ولا خلاص)) [١٢]

المبحث الأول

الأثر الديني في رثاء المدن والممالك الأندلسية

من الإنصاف أن نذكر أن الأندلس قد برعت في هذا اللون من الرثاء براعة مشهورة . فقد وجد في مآسيها الدامية ما أذكى عواطف الحسرة واللهفة ، فاندلعت زفراتها الشعرية تروي قصة المساجد المتهدمة والكنائس المشيدة ، والأذان الصامت والناقوس المجلجل ، والحق أن الشعور الديني المؤجج بالحسرة والندم قد جعل لقصائد الأندلس حرارة معقدة لا تزال تلفح قارئها على مر العصور[١٣].

المطلب الأول : رثاء المدن

أولاً : رثاء مدينة بطليوس

كانت ((بطليوس معقلاً يسعى البرتغاليون للاستيلاء عليها منذ زمن بعيد ، فقد تكررت محاولاتهم مراراً حتى عمد إلى تجريد المدينة الحصينة من قلاعها وحصونها القوية، فاستولوا على شنترين وباجة وشلب ، بعد ذلك أصبح الطريق إلى بطليوس ميسراً . وفي عام ٦٢٧ هـ استسلمت بطليوس بعد انعدام وسائل الدفاع عنها)) [١٤] ، فرثاها أبو المطرف بن عميرة في رسالة بعث بها إلى أهل المدينة معزياً ومصبراً يقول فيها:

ولم أن مثل الحق أما طريقه فأمن واما جاره فعزيز.

ومن الخير ما حاز الفتى الصبر إنه أداة لموفر الثواب تحوز.

رأينا التقى كنزاً يدوم الغنى به إذا فنيت للموسرين كنوز.

وكائن رئينا من حوادث اقبلت فللخلق تصريح بها ورموز.

تقابل بالتسليم الله وحده فتمضي ولم يشعر بها وتجوز[١٥]

إذ نلاحظ الشاعر يسلم لقضاء الله وقدره على الرغم من توالي المصائب والمصاعب، فهو يضمن المعنى القرآني من خلال قوله تعالى : " إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ "[١٦]

فلعل الحث على الصبر هو أقصى ما يستطيع تقديمه الشاعر لأهل المدينة المنكوبين ، وربما لم يدر في خلده أنها ستسقط بيد الأعداء، فالبيتان الأخيران يصوران ذلك، فكأنه ظن أن ما حصل لهم لا يعدو أن يكون حادثة كغيرها من الحوادث التي سرعان ما تنجلي وتمضي ، فحين خذلت بطليوس

وتركت تواجه مصيرها وقعت في أيدي النصارى منقادة رغماً عنها ، وكان سقوطها إيذاناً بسقوط المدن الهامة جميعها الواقعة غربي الأندلس . وبالفعل بعد مدة قصيرة تم الاستيلاء على ماردة وأبذة .

وتم للنصارى الاستيلاء على غربي الأندلس بعد أن كانوا قد استولوا على جزء من شرقه ممثلاً بمدينة سرقسطة عام (٥١٢ هـ) ، وبذلك مهد لهم الطريق قرطبة موسطة الأندلس .

قال ابن عبدون اليابري شاعر بني الأفطس :

الدهرُ يُفْجِعُ بَعدَ العَينِ بِالأثر فما البكاء على الأشباح والصور

أنهاك أنهاك لا آلوكَ مَوعِظَةً عَن نَومَةٍ بَينَ نَابِ اللَيثِ وَالظُّفر

ما لِلَّيالي أَقَالَ اللهُ عَيْرَتَنَا مِنَ الليالي وخانتها يد الغير

في كل حينٍ لها في كُلِّ جارحة منا جراحٌ وَإِن زَاغَتَ عَنِ النَّظَرِ

تَسُرُّ بالشيء لَكِن كي تغرّ بِهِ كالأيم ثار إلى الجاني مِنَ الزهر(١٧)

وهو يتحدث عن الدهر وأنه دائماً يرسل فواجعه على المحسوس، وما وراء المحسوس ، والحزن على من يموتون ، إذ يقتبس الشاعر كلماته من محكم كتاب الله عز وجل في قوله تعالى : " أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ "(١٨)

ويقول إنني لا أقصر في وعظك ولا نهيك عن الاستنامة إلى الدهر ، وهو قد أنشبه فيك نابه وظفره ، ويدعو الله أن يقي لنا وينقذنا من عثرات الليالي، وإن يسلط عليها الأحداث حتى تنهكها ولا تبقى فيها بقية ، إذ في كل حين تصيبنا في عضوا منا عزيز علينا بجراح ، منها ما نراه ، ومنها ما يزيغ عن

البصر ، وإنها إن سرت بشيء وهيهات فلكي تخدعنا به ، بل لكي تلسعني من خلال اللسعة القاضية ، كالأفعى المختبئة في الزهر تلسع يد قاطفة اللسعة السامة المميته

ثانياً :- رثاء مدينة قرطبة

كانت هزيمة الموحدين سنة ٦٠٩ هـ بالأندلس في معركة العقاب إيذاناً بانهيار الأندلس في سنة (٦٣٣هـ / ١٢٣٦ م) ، الذي كان قد استقل بدولته جنوب وشرق الأندلس ، والذي يعد اهتماماً لهذه الاستغاثات ؛ بسبب كونه منشغلاً بحرب محمد بن يوسف بن الأحمر ذلك الأخير الذي كان قد استقل ايضاً ، بجزء آخر من بلاد الأندلس، وفي كل هذه الظروف سقطت قرطبة سنة ٦٣٣هـ بيد القشتاليون ، وقد عرف أنَّ الأندلسيين لم يعرفوا نعمة الاستقرار والأمان والوحدة ؛ وذلك بسبب الانهيارات ، المتتالية للدولة الإسلامية ؛ كالأموية ، والعامرية، وسيادة الفتن والانقسامات في الداخل والخارج .

((لقد هزت هذه الفتنة المريرة شعور الأندلسيين بالاستقرار، فمن سلم من القتل اتخذ الهجرة والرحيل ، فغادر قرطبة جماعة لا يستهان بها من علمائها وأدبائها منهم : ابن شهيد ، ابن حازم ، ابن زيدون وغيرهم كثير . وصمتت الأصوات الشعرية وكسدت سوق الأدب)) [١٩]

وقد تنبه بعض الشعراء إلى انهيار حكم الأمويين في قرطبة إذ ((التفت بعض الشعراء إلى معالم قرطبة ، قرأوا كيف حالت عن حالها وخرجت دورها ، وانقضت معاهد صوبتهم فيها وانطفأت فيها شمس بني أمية والنجوم العامرية فندبوها بمراثيهم)) [٢٠]

إذ رثاها الوزير أبو عامر ابن شهيد .

ويصف حال أهلها ويقول :

فلمثل قرطبة يقل بكاء من يبكي بعين دمعها متفجر

دار أقال الله عثرة أهلها فتبر بروا وتغربوا وتمصروا

في كل ناحية فريق منهم متفطر لفراقها متحير[٢١]

يذكر الشاعر في الأبيات الآنفة الذكر تمزق حال أهل قرطبة بعد ان أحتلت قرطبة ، وسقطت معالمها، وتفرق أهلها ، إذ يقتبس الشاعر كلماته من محكم كتاب الله عز وجل في قوله تعالى :

"وَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ"[٢٢]

ورثاها ابن حزم الأندلسي نثراً وشعراً حين وقف على منازل أهله ورآها

((وقد طمست أعلامها وخفيت معاهدها وغيرت البلى فصارت صحارى مجدبة بعد العمران ، وفيا في موحشة بعد الأنس)) [٢٣]

فمن شعره فيها :

سلام على دار رحنا وغودرت خلاء من الأهلين موحشة قفرا

تراها كأن لم تغن بالأمس بالقعا ولا عمرت من أهلها قبلنا دهرا

ولكن أقدارا من الله أنفذت تدمرنا طوعا لما حل أو قهرا[٢٤]

يتحسر الشاعر في الأبيات السابقة على مدينة قرطبة التي خلت من أهلها وخلت موحشة خالية بعد أن كانت مليئة بالحياة ، وتردد في صباتها هدير الحياة وصحبها إلا أنه يستدرك بكائه وحسرته بأن تلك مقادير الله التي تجري على العباد وذلك مقتبس من قوله تعالى :

" سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا"[٢٥]

وقوله تعالى : " فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ "[٢٦]

وقال ابن عصفور الحضرمي في محاولة لتنبيه الناس بالواقع الماثل أمامهم [٢٧] ويقول :

أضعتم الحزم في تدبير أمركم ستعلمون معاً عقبى البوار غدا

لكن العمى أعمت بصائركم فالبستكم ثياباً للبلى جدداً

يا أمة هتكت مستور سوءتها ما كل من ذل أعطى بالصغار يدا[٢٨]

وفي هذه الأبيات يقتبس الشاعر المعنى القرآني في محكم كتابه العزيز الحكيم :

" أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ "[٢٩]

ولم يكن هذا أسوء ما حدث لمدينة أندلسية ؛ فكما يذكر الدكتور شاهر عوض الكفاوين في كتابه ((الشعر العربي في رثاء الدول والأمصار حتى نهاية سقوط الأندلس)) .

سقطت الدولة العامرية بعد ذلك ، وتمزقت وحدة الدولة وانهار صرح الخلافة ، وأصبح الحكم في أيدي زعماء محليين في كل مدينة أقاموا دويلات مستقلة بلغت ٢٠ دولة وهي التي عرفت " دول الطوائف " ، وكان حكم ملوك الطوائف وإن بدأ مختلف في كل دولة ؛ إلا أن المشترك بينهم جميعاً، هو تناحرهم فيما بينهم بالضعف الذي حل بهم ، كان بعضهم يلجأ في حروبه ضد الدول الأخرى إلى الاستعانة بقوات القشتاليين مقابل جزية يدفعونها ، وكانوا ينكرون كل الأصوات ، الداعية إلى الاتفاق بينهم

ثالثاً : رثاء مدينة إشبيلية

وهي من أهم مدن الأدلسين وقيل إنها كبرى الحواضر الأندلسية ، إذ كانت إشبيلية من أعظم القواعد الأندلسية قاطبة والعاصمة الثانية للأندلس بعد قرطبة[٣٠]

((وبعد أن استولى القشتاليون على قرطبة توجهت أقطارهم إلى إشبيلية ، وبالفعل تم الاستيلاء على القواعد والحصون ، ثم حوصرت المدينة براً وبحراً وضيق عليها الخناق واستبسل أهلها بالدفاع عنها ، ولكن مع قلة الأقوات وانعدام النصر والمعين اضطروا إلى تسليمها عام ٦٤٦ هـ بعد حصار دام سنة وخمسة أشهر)) [٣١]

وقد نظم أهلها أثناء حصارها قصائد مؤثرة، يستصرخون فيها أهل العدوة ، ويستحثونهم على المبادرة ، ومن هؤلاء الشعراء ابن سهيل يحرضهم على الجهاد وما أعد لهم من ثواب الاستشهاد .

ويقول :

ورداً فمضمون نجاح المصدر هِيَ عِزَّةُ الدنيا وَفُوزُ المَحشر

نادي الجهادُ بِكُم لِنَصر مضمر. يبدو لكُم بَينَ العِتاقِ العُمر

إِنَّ الإِلَهَ قَدْ اشْتَرى أَرواحَكُم بيعوا وَيَهْنِكُمُ ثَوابُ المُشتَرِي[٣٢]

إذ يستنهض الشاعر همم المسلمين ، ويذكرهم بمكانة الشهامة التي هي العز في الدنيا والفوز بالمحشر ، وإنَّ الله سبحانه أشترى من المؤمنين المجاهدين أنفسهم ، مقتبساً ذلك . من قوله تعالى من محكم كتابه العزيز :

" إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ "[٣٣]

"ومن الشعراء أبو موسى هارون بن هارون يرثي أهل إشبيلة ويصف ما نالها من الكرب الشديد " (البسيط)

ويقول :

يا حمص أقصدك المقدور حين رمى لم يرع فيك الردى إلا ولا ذمما

جرت عليك يد الدهر ظالمة لا يعدل الدهر في شيئ إذا حكما

يا جنة زحزحتنا عن زغارفها ذنوبنا فلزمنا البث والندما

يا سائلي عن مصاب المسلمين بها أصغ لتسمع أمرا يورث الصمما(٣٤)

وفي هذه الأبيات يقتبس الشاعر المعنى القرآني ويوظفه في تجربته الشعرية ، فالموقف يتناسب وهذا المعنى ، إذ يصف ما آل إليه حال إشبيلية بعد إن جارت عليها يدر الدهر الظالمة، فهي الجنة التي زحزحوا عنها بذنوبهم، فصار مصابهم فيها جلل بل يورث الصمم وهذا مقتبس من قوله عز من قال في كتابه الكريم : " فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ "(٣٥)

ومن أشهر تلك القصائد قصيدة أبي البقاء الرندي الشهيرة التي يقول في مطلعها :

لِكُلِّ شَيْءٍ إِذا مَا تَمْ نُقصانُ فَلا يُغَرَّ بِطيب العيش إنسان

هي الْأُمُورُ كَمَا شَاهَدتُهَا دُوَلٌ مَن سَرَّهُ زَمَن سَاءَتَهُ أَزْمَانُ(٣٦)

إن سقوط المدن المتوالي يعمق شعور الأندلسيين بالخطر ، وكان يعني أن القشتاليين سينفردون بحصار المدن الأخرى دون قوة تواجههم ، وكانوا الأندلسيين في أغلب قصائدهم يكثرون الاستشهاد بآيات القرآن الكريم . قوله تعالى "وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ "(٣٧)

المطلب الثاني : الأثر الديني في رثاء الممالك

أولاً : رثاء مملكة بني العباد

تعد مملكة بني عباد من أعظم ممالك الطوائف وأقواها وأكثرها نفوذاً ، وكان بلاطها زاخراً بأشهر شعراء العصر، وأعظم علمائه ؛ لما يمتاز به أميرها المعتمد بن عباد من معرفة بفنون الأدب ونظم للشعر .

((وهي من أهم الممالك التي سقطت ، ونالت تعاطفاً كبيراً من الشعراء دولة بني عباد ، وقد زالت على يد يوسف بن تاشفين سنة ثلاث وثمانين واربعمائة ، فرثاها واحد من الشعراء ومن أهمهم المعتمد نفسه الذي إندثرت سلطته وزال عرشه ، ولكنه ظل في أذهان محبيه ، والشعراء الذين درجوا في بلاطه ملكاً ، فكأن ملكه قد تحول من العرش والسلطة إلى ملك وجداني ؛ فقد ظل في أذهان هؤلاء الشعراء ملكاً حتى بعد عزله ، ومن الأسباب التي أفضت إلى ذلك أن المعتمد من أسرة معظمها من الشعراء ، وكان أشعرهم ، وكان بلاطه مجمعاً للشعراء والعلماء)) [٣٨]

يقول أبو بكر الداني (ابن اللبانة) في رثاء مملكة بني العباد

ويقول :

لكل شيئ من الأشياء ميقات وللمنى في مناياهن غايات

والدهر في صبغة الحرباء منغمس ألوان حالاته فيها استحالات[٣٩]

فقد كان ابن اللبانة من الشعراء الذين عبروا عن عظيم فاجعتهم بسقوط مملكة بني عباد ، إذ نلحظ إن القصيدة مفعمة بالاسى ، المترع بمعاني الوفاء ، وكذلك عاطفتي الحزن والتفجع التي طغت على أبياته ، فقد جاءت أفكاره كلها ندب على سقوط تلك المملكة العظيمة .

وقد أستعمل الشاعر كلمة (ميقات) وهو الوعد الذي جعل له وقت ، وهذا تسليم بقضاء الله عز وجل، على الرغم من الحزن والألم الذي ينتاب الشاعر بسقوط مملكة بني عباد ، وذلك من خلال اقتباسه المعنى القرآني في قوله تعالى : " إلى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ "(٤٠)

وتجري دموع الشاعر الحارة على ضياع ملك بني عباد التي اهتزت لضياعها الدنيا فيقول :

تَبْكِي السَّمَاءُ بِدَمْعٍ رَائِحٍ غَادِي عَلَى الْجِبَالِ الَّتِي هُدَّتْ قَوَاعِدُهَا

على البَهَالِيلِ مِنْ أَبْنَاءِ عَبَّادِ وَكَانَتِ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ذَات اوتاد(٤١)

إذ نرى الشاعر يعبر في أبياته السابقة عن مدى حسرته وتفجعه؛ لسقوط مملكة بني عباد، إلى الحد الذي ذهب فيه أن السماء بكت والجبال هدّت حين سقطت مملكتهم ، وذلك مقتبس من قوله تعالى في محكم كتابه العزيز : " تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا(٤٢)

ثانياً : رثاء مملكة بني المظفر

((دولة بني المظفر دولة فروسية ، ونخوة، وأدب وشعر ، وعلم ، يسهر عليه الملك وتتعب عليه الرعية ، أنشاها محمد بن المنصور بن الافطس التجيبي في بطليوس وماردة ويابرة وشنترين واشبونة وما حولها ، أي أنه كان ملكاً على البرتغال الحالية وهي جزء غير صغير في أسبانيا ، وكان يلقب بالمظفر ، وهو معاصر للمعتمد فإذا كان المعتمد كبير ملوك الشعراء ، فقد كان المظفر كبير ملوك الأدباء؛ لما توفي المظفر سنة ٤٦٠ هـ تولى الملك بعده أخوه عمر الذي يُلقب بالمتوكل ، والذي يدعو إلى الأسى أن المتوكل وابنيه (الفضل والعباس) قد قتلوا تحت سنابك خيل ابن تاشفين سنة ٤٨٩ هـ وقد حزن الناس عليهم)) (٤٣)

يقول محمد بن عبدون في قصيدته الرائية التي تعد من أشهر قصائد الشعر الأندلسي ولاسيما رثاء دول الممالك :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور

أنهاك أنهك لا ألوك موعظة عن نومة بين ناب الليث والظفر

فلا يغرنك من دنياك نومتها فما صناعة عينيها سوى الشهر(٤٤)

فالشاعر بين توجعاً ويورد لوعاته الواحدة تلو الأخرى ، فالدهر يفجع والليالي تخدع ، والدنيا تغر؛ لينتهي من ذلك كله إلى غدر الدنيا ببني المظفر ، وهو ينزع في ذلك إلى القرآن الكريم بقوله تعالى : " وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَعُ الْغُرُورِ "(٤٥)

كما يقول ابن عبدون راثياً بني لمظفر :

كما يقول ابن عبدون راثياً بني لمظفر :

بني المظفر والأيام ما برحت مراحلاً والورى منها على سفر

سحقاً ليومكم ، ولا حملت لمثله ليلة في غابر العمر(٤٦)

فالطابع الغالب على رثاء ابن عبدون هو الأسى العميق والتماس الوعظ في زوال الدول، وإرجاع نكبتهم إلى فعل الدهر مرة ، وإلى أنفسهم مرة أخرى ؛ وذلك مقتبس من قوله تعالى : " وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ "(٤٧)

إذ يصور الشاعر ما أصاب المسلمين في الأندلس عند سقوط مملكة بني المظفر ويأسى لحالهم وما آلوا إليه .

الخاتمة:

من الجلي أن الأندلس قد استأثرت دون سواها بفن رثاء المدن والممالك؛ نتيجة لما مرت به من ظروف سياسية, واحتل هذا الصنف من الرثاء دواوين معظم الشعراء الأندلسيين.

ولقد تميز هذا اللون بصدق العاطفة ,وكثرة الندب, والتفجع,ولوم الدهر وتقلباته,والتأمل في المصير.

وقد ابدع الأندلسيون في رثاء المدن والممالك,إذ ظهرإخلاص الأندلسي لمدينته وجزيرته عامة, وقد أجاد الشعراء تصوير المأساة التي حلت بالمسلمين,ووقفوا على أسبابها, ووضحوا سبيل الخلاص منها,, وذلك في العودة إلى الدين الإسلامي , والوحدة العربية الإسلامية .

وقد نوع الشعراء في هذا اللون من الرثاء , فمنهم من تعزى بالصبر وطلب الأجر, ومنهم من تأسى بتذكر ماآل إليه غيره ممن وقفوا في ذات المصير, و منهم من تمنى اللقاء بالمرثي في المنام ويطلب من الله عز و جل أن يدخله معه فراديس جنانه , وقد استقى الشعراء من ايات الذكر الحكيم , والقصص القراني,والاحاديث النبوية الشريفة معظم مراثيهم , وصبغها بالصبغة الإسلامية كما اوضحت قصائدهم حرص الشعراء على الدين والتمسك بالعقيدة من خلال تضمين الشعائر الإسلامية في تلك المرثيات.

الهوامش:

(١) التناص في الديوان لأجل غزة ، حاتم عبد الحميد محمد ، رسالة ماجستير ، الجامعة الاسلامية ، غزة ، ٢٠٠١ م ، ص : ٦٤

(٢) يُنظر : الأدب العربي في الأندلس ، عبد العزيز محمود عيسى . د . ط ، مطبعة الاستقامة ، ص : ١٣٣

(٣) الأدب العربي في الأندلس، عبد العزيز محمود عيسى ، د. ط ، مطبعة الاستقامة ، ص : ١٣٤

(٤) الأدب العربي في الأندلس ، عبد العزيز محمود عيسى ، د. ط ، مطبعة الاستقامة ، ص : ١٣٦

(٥) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، ابو نصر اسماعيل بن حماد الجواهري ، (ت ٣٩٨ هـ) د. ج ، دار الصادر، بيروت ، ج ١، ص : ٨٣

(٦) معجم مقايس اللغة ، أبي الحسين احمد بن فارس بن زكريا ، ج ٢، د. ط ، دار الفكر للطباعة ، ص : ٤٨٨

(٧) لسان العرب، محمد محمد بن كرم بن علي ابو الفضل جمال الدين ابن منظور ، ت (٠٧١١) ، ط٣ ، دار الصادر بيروت ، ج ١، ص٨٣

(٨) الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص ، حسنى عبد الجليل يوسف ، د.ط ، مؤسسة المختار ، ص : ٣٤٩ .

(٩) الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، فوزي عيسى ، طا ، دار الوفاء لدنيا ، ص : ١٦٦

(١٠) فنون الأدب العربي، شوقي ضيف ، ط ٤ ، دار المعارف ، ص: ١٢ .

(١١) فنون الأدب العربي ، شوقي ضيف ، ط ٤ ، دار المعارف ، ص: ٥٤

(١٢) فنون الأدب العربي، شوقي ضيف ، ط ٤ ، دار المعارف ، ص: ٨٦ .

(١٣) الأدب الاندلسي بين التأثر والتأثير ، محمد رجب البيومي ، د . ط ، دار الثقافة والنشر بالجامعة ، ص : ٢٣٨

(١٤) رثاء المدن والممالك الأندلسي ، مهجة أمين باشا ، د. ط ، شراع للدراسات والنشر والتوزيع ، ٢٠٠٣ م ، ص : ٦٥

(١٥) ديوان أبن الآبار ، حققه : حسين مؤنس، دار المعارف، ص : ٢١٥

(١٦)سورة القمر، الآية: ٤٩

(١٧) ديوان ابن عبدون، حققه : سليم التنير ، دار الكتاب العربي ، ص : ٧٧

(١٨) سورة ص ، الآية : ٦٣

(١٩) الغربة والحنين في الشعر الأندلسي ، فاطمة طحطح ، ط١، منشورات كلية الآداب الرباط ، د.ت ، ص : ٤٣

(٢٠) تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة ، إحسان عباس ، ط ٢ ، دار الثقافة بيروت – لبنان المكتبة الأندلسية ، د.ج ، ص : ١٣٨

(٢١) ديوان ابن شهيد الأندلسي ، جمعه وحققه : يعقوب زكي ، دار الكاتب العربي – القاهرة ، ص : ١٠٩ ، ١١٠

(٢٢) سورة البقرة ، الآية : ١٠٠

(٢٣) تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، إحسان عباس ، ط ٢ ، دار الثقافة بيروت – لبنان المكتبة الأندلسية ، د.ج . ص ١٣٩

(٢٤) ديوان ابن حزم الأندلسي ، جمعه وحققه : د. صبحي رشاد عبد الكريم ، دار الصحابة للتراث – مصر ، ص : ٧٥

(٢٥) سورة الأحزاب ، الآية : ٣٨

(٢٦) سورة يونس ، الآية : ٢٤

(٢٧) تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة ، إحسان عباس ، ط ٢ ، دار الثقافة بيروت – لبنان ، المكتبة الأندلسية ، د . ج ، ص : ٢٨

(٢٨) ديوان ابن عصفور الحضرمي ، حققه : د . فخر الدين ، دار المعرفة بيروت ، ص : ٣٦٤

(٢٩) سورة إبراهيم ، الآية : ٢٨

(٣٠) يُنظر : قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط ، راغب السرجاني ، طا ، مؤسسة اقرأ – القاهرة ، ج ١ ، ص: ٦٤٠

(٣١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، التلمساني ، أحمد المقري ، ج ٤ ، دار الصادر بيروت ، ص : ٤٧٢

(٣٢) ديوان ابن سهل الأندلسي ، جمعه : احمد حسنين القرني، مؤسسة هنداوي ، ص : ١٥٤

(٣٣) سورة التوبة ، الآية : ١١١

(٣٤) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عذارى المراكشي ، م ٤ ، ص : ٤٥٦

(٣٥) سورة ال عمران ، الآية : ١٨٥

(٣٦) ديوان أبي البقاء الرندي ، جمعه : الشيخ عيسى بن محمد الشامي، ص : ٤٣

(٣٧) سورة آل عمران ، الآية ١٤٠

(٣٨) شعراء العرب المغرب والأندلس ، يوسف عطا الطريفي ، ط١، عمان – الأهلية للنشر والتوزيع ، ص: ٣١٣

(٣٩) ديوان ابن اللبانة الداني ، جمع وتحقيق الاستاذ الدكتور محمد مجيد السعيد ، ط ٢ ، دار الراية للنشر والتوزيع عمان ٢٠٠٨٠ م ، ص : ٣٦

(٤٠) سورة الواقعة ، الآية : ٥٠

(٤١) ديوان ابن اللبانة الداني، جمع وتحقيق : الأستاذ الدكتور محمد مجيد السعيد ، ط ٢ ، دار الراية للنشر والتوزيع ، عمان ، ٢٠٠٨ م ، ص : ٥٦

(٤٢) سورة مريم ، الآية : ٩٠

(٤٣) نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، احمد بن محمد المقري التلمساني ، د. ط ، دار الصادر بيروت ، ج ٦ ، ص : ٣٤ .

(٤٤) ديوان ابن عبدون، حققه: سليم التنير، دار الكتاب العربي ، ص: ١١٠

(٤٥) سورة الحديد ، الآية : ٢٠

(٤٦)ديوان ابن عبدون، حققه: سليم التنير، دار الكتاب العربي، ص٩٤

(٤٧)سورة آل عمران، الآية: ١٤٠

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير ، محمد رجب البيومي ، د.ط ، دار الثقافة والنشر .

٢. الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص ، يوسف ، حسنى عبد الجليل يوسف، د. ط ، مؤسسة المختار

٣. الأدب العربي في الأندلس ، عبد العزيز محمود عيسى ، د.ط ، مطبعة الاستقامة

٤. البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب ، ابن عذارى المراكشي ، م ٤ ، دار الصادر بيروت .

٥. تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة ، احسان عباس ، ط ٢ ، د.ج ، دار الثقافة بيروت – لبنان المكتبة الأندلسية .

٦. التناص في الديوان لأجل غزة ، حاتم عبد الحميد محمد ، رسالة ماجستير، الجامعة الأسلامية ، غزة ، ٢٠٠١ م .

٧. ديوان أبن الآبار البلنسي ، حققه : حسين مؤنسس ، دار المعارف القاهرة

٨. ديوان ابن سهل الأندلسي ، جمعه : أحمد حسنين القرني ، مؤسسة هنداوي

٩. ديوان ابن شهيد الأندلسي ، جمعه وحققه : يعقوب زكي ، دار الكاتب العربي – القاهرة

١٠. ديوان ابن عبدون ، حققه : سليم التنير ، دار الكتاب العربي .

١١. ديوان ابن عصفور الحضرمي ، حققه : د. فخر الدين ، دار المعرفة بيروت

١٢. ديوان أبي البقاء الرندي ، جمعه : الشيخ عيسى بن محمد الشامي

١٣. ديوان ابن اللبانة الداني ، جمع وتحقيق : الأستاذ الدكتور محمد مجيد السعيد ، ط ٢ ، دار الراية للنشر و التوزيع – عمان ، ٢٠٠٨ م .

١٤. ديوان ابن حزم الأندلسي ، جمعه وحققه : د. صبحي رشاد عبد الكريم ، دار الصحابة للتراث – مصر .

١٥. رثاء المدن والممالك الأندلسية ، مهجة أمين باشا ، د.ط ، شراع للدراسات والنشر والتوزيع ، ٢٠٠٣ م .

١٦. السمات الفنية لمقاطعات الشعر الأندلسي في عصري المرابطين والموحدين محمد شهاب احمد ، ط١ ، دار أمل الجديدة ، دمشق ، ٢٠١٤ م .

١٧. الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، فوزي عيسى ، طا ، دار الوفاء لدنيا

١٨. شعراء العرب المغرب والأندلس ، يوسف عطا الطريفي ، ط١، عمان- الأهلية للنشر والتوزيع

١٩. الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، الجواهري ، ابو نصر اسماعيل بن حماد الجواهري، (ت٢٩٨هـ)، د.ج، ج١، دار صادر بيروت

٢٠. الغربة والحنين في الشعر الأندلسي ، فاطمة طحط ، ط ، د.ت

٢١. فنون الأدب العربي ، شوقي ضيف ، ط ، د. ج ، دار المعارف .

٢٢. قصة الأندلس من الفتح الى السقوط ، راغب السرجاني ، ط١، مؤسسة أقرأ – القاهرة .

٢٣. لسان العرب ، محمد بن كرم بن على أبو الفضل جمال الدين أبن منظور ، (ت٧١١هـ) ، ط ٣ ، ج ١ ، دار الصادر بيروت .

٢٤. معجم مقايس اللغة ، أبي الحسين احمد بن فارس بن زكريا ، ج ٢ ، د.ط ، دار الفكر للطباعة .

٢٥. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، التلمساني ، احمد المقري ، ج ٤، دار الصادر بيروت .